جَزيْرة الرّوضَة في التاريخ

ضحوت الشمس على سطح داري بجزيرة الروضة، وكانت برودة الريح قد ضربت في حرارة الشمس فدفئ الجو دفئًا معتدلاً يلذ الشعور به ويطيب المكث فيه. وإذا عمك الدفء وشملك السكون وعزلتك الوحدة فلا مفر من حديثك إلى نفسك وانطوائك على وعيك.

وكان الذي مهد للحديث بيني وبين نفسي وقوع بصري على جامع قايتباي الذي بناه القاضي فخر الدين ناظر الجيش سنة 730هـ وجدده الملك الأشرف قايتباي، وهو قبالة داري من جهة الغرب، فمثل لخاطري الشيخ جلال الدين السيوطي وهو يغدو إليه كل يوم من داره المجاورة له فيعقد فيه مجلسًا للعلم والأدب يغشاه طلاب المعرفة من القاهرة والجيزة. ثم يخرج في أيام الثلاثاوات إلى " المشتهى" وهو منتزه أريض كان يقع في شرقي هذا الجامع ويطل على الفرع الصغير للنيل. وقد طاب مقام السيوطي بجزيرة الروضة وأحبها فاقتضاه هذا الحب أن يكتب في تاريخها كتابًا جامعًا سماه "كوكب الروضة".

ثم رجعت بي الرؤيا الخيالية إلى ماضي هذه الجزيرة التي خلقتها الطبيعة على صورة سفينة هائلة أرست على مدى قصير من ساحل مصر القديمة، مقدمها اليوم قصر المناسترلي والمقياس، ومؤخرها المستشفى الجامعي وفونتانا، فوجدتها على توالي القرون وتعاقب الدول قد كانت إما حصنًا يحفظ الأموال والأنفس، وإما روضًا يمتع الأرواح والحواس.

اعتصم بحصنها القديم المقوقس حين استولى العرب على قصر الشمع فحطم الجسر ثم مكث بها هو ومن تبعه من الروم والقبط ردَحا من الزمن، ثم أخلاها المدنية العربية فقامت بها القصور والدور والرياض في ولاية عبد العزيز بن مروان. وكان مقياس النيل في حلوان، فلما سقط عموده هناك أمر سليمان بن عبد العزيز عامله أسامة ابن يزيد أن يقيمه في الطرف الجنوبي من الجزيرة، فأقامه ولا يزال.

وكان على الأرض الواقعة على الشمال من المقياس دار الصناعة فنقلها محمد ابن طغج الإخشيد إلى ساحل الفسطاط سنة 325هـ وشاد في مكانها قصرًا سماه "المختار" كان آية في جمال الفن وغاية في حسن الزخرف، وظل بستانه متنزه الخاصة في عهدي الإخشيدية والكافورية وأوائل عهد الفاطمية. وكان البنيان في الجزيرة قد اتصل والعمران قد استبحر حتى عينوا لها واليًا وقاضيًا وقالوا في التقسيم الإداري لحاضرة الدولة: القاهرة ومصر والجزيرة. فلما استبد الأفضل ابن أمير الجيوش بأمور الخلافة خط له في شمال الجزيرة بستانًا وقصرًا سماه الروضة فسميت الجزيرة كلها باسمه.

* * * * *

وكان الخليفة الآمر بأحكام الله مولعًا بالبدويات الحسان، فترامى إليه أن بالصعيد أعرابية بارعة الحسن تقول الشعر وتجيد الحديث تسمى الغالية، فتزوجها بقوة السلطان ونقلها إلى قصره فضاقت نفسها فيه واشتهت الفضاء، فبنى لها على النيل في جنوب الروضة قصرًا على طراز فريد سماه الهودج.

وكانت الغالية تحب فتى شاعرًا من بني عمها يقال له: ابن مياح، فنازعتها نفسها إليه وبرمت بمقامها عند الخليفة. ولج المصريون بحديث الغالية وابن مياح، وشاع في الناس أن الشاعرة أرسلت إلى الشاعر هذه الأبيات:

يا ابن ميَّاح إليك المشتكى ... مالكٌ بعدكمو قد ملكا
وأنا الآن بقصر موصد ... لا أرى إلا خبيثًا ممسكا
كم تثنينا كأغصان النقا ... حيث لا نخشى علينا درَكا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها بقوله:

بنت عمي والتي غذيتها ... بالهوى حتى جلا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفع منا المشتكي
مالك الأمر إليه يشتكى ... هالك وهو الذي قدا أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبديًا بالتيه ما قد ملكا

وبلغت هذه الأبيات مسامع الخليفة فقال: لولا بيته الرابع لجمعت بينهما على شريعة الله.

ولهذه القصة سابقة ولاحقة. فأما السابقة فقصة ميسون زوج معاوية فقد أتى بها من القفر إلى القصر ولكنها لم تلبث أن قالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرَّ عيني ... أحب إلى من لبس الشفوف
وخِرق من بني عمي نحيف ... أحب إلى من علج عنيف

وأما اللاحقة فقصة البدوية التي تيمت الخديوي فؤاد عباس الأول فتزوج منها وأنزلها قصرًا في ظاهر القاهرة وأخذ يختلف إليها سرًا حتى أنقذها منه من اغتاله في قصره ببنها.

وسار على الأفواه حديث هذه البدوية فنُسجت حولها الأساطير ونظمت فيها الأغاني. ولا يزال المغنون يرددون هذه الأغنية: " يا حالي ع البدوية ".

* * * * *

وفي أواخر الدولة الأيوبية ابتنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة بهذه الجزيرة فخرَّب المختار والهودج؛ ودمر الدور والمساجد، وقطع النخل والشجر، ثم رفع أبراجها الستين على المثلث الجنوبي كله من الروضة. ثم جعلها مقر ملكه ومعسكر مماليكه ومستودع أسلحته. كان من مفاخر هذه القلعة الإيوان الملكي الذي أفتنت فيه الأيدي الصناع فصفحوا أبوابه بالذهب، وجللوا جدرانه بالمرمر ووشوا سقوفه بالزخرف، وزينوا أرضه بالمجزع. ثم جعلوا من وراء سوره معرضًا لسباع الوحش والطير يتفرج به السلطان، ومن خلف معرضه مروجًا يتدفق فيها النيل، فيكون لها منظر رائع وهي المنيل.

فلما حكم المماليك تقسموا أبراج القلعة ونقلوا ما كان فيها من رخام وحجر وخشب فبنوا به بعض المباني العامة. ثم جرت بعد ذلك على الجزيرة جوار بالأنس والوحشة وبالنعيم والبؤس حتى استهل العصر الحديث فاختط إبراهيم باشا البستان

الكبير في طرفها الشمالي وجلب إليه النوادر من الشجر والزهر، والأوابد من الوحش والطير، وشق به القنوات وسلسل فيها الماء، وأرسى الروابي ونمنم فوقها النبت، على نحو ما نرى اليوم في بستان الخديوي إسماعيل بالجيزة " حديقة الحيوان "، ثم جعله منتزها للناس يرتادونه في الأعياد والمواسم.

وبنى حسن باشا المناسترلي كتخدا مصر في عهد عباس الأول قصره في طرفها الجنوبي. ثم قضى نظام الطبقات أن يسكن العامة الجانب الغربي على النيل الكبير، وأن يسكن الخاصة الجانب الشرقي على النيل الصغير، فبنى إسماعيل قصره وبستانه في الشرق من جامع قايتباي وهو قصر محمد علي الذي صار متحفًا في عهد الثورة. ثم تتابع السراة على البناء فقامت قصور قاسم باشا وذي الفقار وعلي شريف وسليم الجزائري، ونشأت بساتين شاكر بك والبارودية والمندورة، ثم عبثت يد الفناء بالناس، وعصفت ريح البلى بالدور، فذهبوا وبقيت الأطلال !.

ثم جرى على هذه الأطلال حكم الديمقراطية فتوزعها الشعب وأقام على القصور دورًا ومدارس، وعلى الدوائر عمائر ومتاجر، وعلى اللهو إنتاجًا وخدمة.

* * * * *

على أن الروضة كانت في عهودها المختلفة أرحب البقاع صدرًا بالشعب، فكانت متنفسه في الضيق ومستراده في النزهة ومحتفله في المواسم، وبخاصة في يوم شم النسيم وفي ليلة الغطاس، وهي الليلة الحادية عشرة من شهر طوبة، وكان الأقباط يحيونها في الروضة فيوقدون النيران ويشعلون المشاعل ويتبسطون في القصف والعزف واللهو حتى تحين الساعة فيغطسوا وينصرفوا..

وكان المسلمون حتى الخلفاء يشاركونهم في إحيائها بالوقود واللهو، قال المسعودي في مروج الذهب: " حضرت سنة 330 ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشموع. وقد حضر النيل في تلك الليلة ألوف من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل

والمشارب وآنية الذهب والفضة والجواهر والملاهي .. وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ".

تلك صورة الروضة ومنيلها في شتى العصور منذ الفتح، مرت بخاطر السيوطي فجعل منها كتابًا، ثم مرت بخاطري فجعلت منها مقالة !.